العار الفلسطيني في رواية غسان كنفاني

فيصل درّاج(*)

ناقد أدبي.

«الآن لا فرار... وليس ثمة الآن إلا ذلك المفترق بين طريق الحياة وطريق الموت، ذلك المفترق الذي تكتشف أنك أمضيت عمرك تراوح أمامه دون أن تتخذ قرارك، ليس لأنك لا تريد، ولكن لأنك غافل عن ضرورة ذلك».

غسان كنفاني
من رواية «الأعمى والأطرش».

كثيرٌ من النصوص الفلسطينية التحريضية، في زمن «الكفاح المسلح» بخاصة، رأت في الفلسطيني كياناً متجانساً، يقاتل كياناً متجانساً آخر يدعى: «الصهيوني». أخذ الأول صفات إيجابية متعددة، تجعله منتصراً في معركة ضد عدوّ، له صفات مغايرة، كما لو كان الأول رسول الخير والنقاء، والثاني مرآة للشرّ والخطيئة. عبّرت عن هذه القسمة الباترة رواية جبرا إبراهيم جبرا، التي نسبت الفلسطيني إلى أرض مقدسة، وآمنت بأن قتاله مكلّل بالانتصار(١).

تعامل غسان كنفاني مع فلسطيني آخر، لا يُحسن القتال إلا إذا أحسن إصلاح ذاته، وأدرك وجوه النقص والخلل في وعيه وممارسته، ووعى، بشكل موازٍ، أسباب «فراره» من فلسطين، والأسباب التي أقام عليها الصهيوني انتصاره. قال «الأديب» الراحل بِشَكليْن أساسيين من القتال: قتال الفلسطيني ضدّ جوانب السلب في شخصيته ووجوده، وقتاله ضدّ عدوّه، معتبراً القتال الأول مقدمة للقتال الثاني وشرطاً له، ذلك أن القتال المؤسس على الخطأ،

(*) البريد الإلكتروني: info@azminah.com.

(١) انظر جبرا إبراهيم جبرا: **صيادون في شارع ضيق**، ترجمة محمد عصفور (بيروت: دار الآداب، ١٩٧٤)، و**البحث عن وليد مسعود: رواية** (بيروت: دار الآداب، ١٩٧٨).

يضيف إلى الهزائم السابقة هزائم جديدة. ولهذا لم يتعامل كنفاني مع «الفلسطيني» بصيغة المفرد، ولم يقبل بوهم الفلسطيني المتجانس، قائلاً بفلسطينيين يحملون قيماً مختلفة، تحيل إلى الصدق والإخلاص والتضحية، أو إلى كل ما يخالف ذلك مخالفة كاملة.

أقام كنفاني قسمته على فكرة «العار» الذي لحق بالفلسطينيين الذين «فرّوا» من وطنهم، الذي توالد من جديد في أرض الغربة واللجوء. واتكاء على هذه الفكرة، ونقيضها فكرة الشرف، كتب غسان رواياته، ما اكتمل منها وما منعه الموت من إكمالها.

أولاً: رجال في الشمس وثمن العار

١ ـ أنهى غسان كنفاني روايته **رجال في الشمس** (١٩٦٣) بالسطور التالية:

«انزلقت الفكرة من رأسه ثم تدحرجت على لسانه: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟ (...) دار حول نفسه دورة ولكنه خشي أن يقع فصعد الدرجة إلى مقعده وأسند رأسه فوق المقود: لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟ (...) وفجأة بدأت الصحراء كلها تردد الصدى: لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟»[٢].

تتأسّى الجملة الشهيرة: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟» على لاجئين فلسطينيين ماتوا اختناقاً في خزّان شاحنة وهم يتسلّلون إلى الكويت، وترثي فقراء مستسلمين لم يعرفوا الاحتجاج، وتتأمّل التصاقاً بالموت أقرب إلى الأحجية. بيد أن دخول الصحراء، بصوتها الشاسع، يضع الأخلاقي والوجداني جانباً، ويفصح عن مأساة تتجاوز «الضحايا»، كما لو كان في اختناقهم مأساة كاملة مغلقة، لا سبيل إلى الفرار منها. توحي الجملة المتكرّرة، المحتشدة باللوم والغضب، برغبة «الكتابة» في إنقاذ الذين لم ينقذوا أنفسهم، مستنفرة المحاكمة العقلانية والحسّ الإنسانيّ السليم، فهؤلاء الذين قامروا بحياتهم البائسة تطلعوا إلى حياة مغايرة. غير أن قراءة نص غسان تؤكد شيئاً آخر، وتقوله مرتين: تقود صفات «الضحايا»، المثقلة باليأس والإحباط وفقر الخبرة، إلى نتيجة وحيدة هي: الموت، وتقول أيضاً: أغلقَ الروائي أمام «شخصياته» المنافذ جميعها ودفعهم، بشكل مستقيم، إلى موت مؤكد لا كرامة فيه، مقتنعاً الاقتناع كله بأن الموت المهين هو القدر الوحيد المتاح لشخصيات بائسة متساقطة.

٢ ـ استهل الروائي حكايته بفلسطيني متعب القلب تذكّرَ، وهو ملقى في صحراء غريبة، أنه ترك قلبه السليم في الأرض التي تركها، وأن «الغربة الآسنة» دفعت إلى صدره قلباً مريضاً: «ليس يدري لماذا امتلأ، فجأة، بشعور آسن من الغربة، وحسب لوهلة أنه على وشك أن يبكي..» (ص ٣٨). أفضت الغربة الموحشة إلى يقظة مفاجئة متأخرة، فبين رمل الصحراء وتراب الأرض البعيدة مسافة تستدعي «البكاء»، وتأمر بتقريع أرواح ضلّت السبيل. دفعت اليقظة المتأخرة الفلسطيني المهان إلى تذكّر فلسطيني شاء خياراً آخر، وفّر عليه المهانة والتسلسل

---

(٢) غسان كنفاني، **الآثار الكاملة**، ٣ ج (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ٢٠٠٥)، ج ١: **الروايات**، ص ١٥٢.

المهلك في الصحراء. ولهذا تعقد الرواية، في صفحتها الرابعة، مقارنة بين الفلسطيني التائه في الصحراء ومعلّم «يجيد إطلاق الرصاص»، سقط مدافعاً عن أرضه، وحظي بـ «نعمة إلهية» وافرة، وفّرت عليه «الذل والمسكنة وأنقذت شيخوخته من العار»، كما تقول الرواية.

عقدت الرواية، في مستهلها، مقارنة بين شخصين وقدرين: عنوان **أحدهما** البندقية والقتال والموت الكريم والالتحاق بتراب الأرض، وعنوان **ثانيهما** الفرار والمسكنة والتيه في الصحراء. أفصحت الرواية عن الموت القادم قبل مجيئه، مقررة موتاً، هو عقاب وأمثولة معاً: عقاب عادل لشخصيات فقيرة لا تعرف الحسبان، موت ـ أمثولة، استحقّه فلسطيني خلط بين تراب الوطن ورمل الصحراء. حمل الفلسطيني، قبل يقظته المفاجئة المتأخرة، وهماً يعبّد الطريق إلى الموت، وحمل بعد يقظته يأساً فادحاً يمنعه من الوقوف. صاغ مصيره من الوهم والعجز، وصاغه مصيره ضحية ملقاة على قارعة الطريق.

تعامل غسان مع شكلين أساسيين من قتال الفلسطيني: قتاله ضد جوانب السلب في شخصيته ووجوده، وقتاله ضد عدوه.

لا تحيل الجملة الشهيرة: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟»، والحال هذه، إلى تعاطف أخلاقي، فالذين فروا من أرضهم لا يستحقون التعاطف، ولا تطرح سؤالاً يبحث عن إجابة، لأن الإجابة جاهزة واضحة في مبتدأ المسار. وإذا كان هناك من سؤال، فهو احتجاج على الخروج من الوطن لا على صمت الهالكين، بل إن في عنف السؤال وحرقته دعوة للفلسطينيين، إلى التفكير في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، فقد اقترفوا إثماً لا يمحوه إلا عقاب شديد، ولا يغفره إلا ما يردّ على العار بفضائل غير مسبوقة، تدير ظهرها إلى الصحراء وتسلك درباً صعباً إلى الوطن. وواقع الأمر أن غسان، الذي عاش تجربة اللجوء في أكثر أشكالها بؤساً، كان خجِلاً من شعبه اللاجئ، وغاضباً شديد الغضب على شخصياته، التي لم تشعر بالعار، أو شعرت به في لحظة مفاجئة متأخرة. ولهذا حكم عليها بالموت، بعد أن ألقى ضوءاً نافذاً على فقرها الروحي والمعنوي: فهي لا تعرف الحسبان ولا تحتج على الإهانة، واهنة مكسورة ضعيفة الذاكرة، مشدودة إلى أحلام صغيرة وأوهام كبيرة، أنانية تعرف الهرب ولا تعرف المواجهة، تعيش في ماضٍ لم تحسن الدفاع عنه، وفي حاضر لا تعرف التعامل معه، وتبني أحلاماً من ورق وتراها في مستقبل لا تدرك من معناه شيئاً.

يأتي الموت إلى شخصيات **رجال في الشمس** من طرق متعددة: تموت لأنها تفتقر إلى الوعي والمسؤولية، وتموت منصاعة إلى «خالقها»، أي الروائي، الذي رأى في استمرارها في الحياة عاراً، وتموت لأن الموت مكتوب في مسارها، بسبب قدر أقرب إلى اللعنة. فاللاجئ الباحث عن «الزيتون» في الصحراء يحصده الموت، والمعلم النزيه المقاتل يسقط قتيلاً فوق أرضه، وقريب الشاب المهان قاتل وانتهى إلى التراب، والأنثى المبتورة الساق لها وجه مريض لا شفاء له،... يتساقط الموت على الفلسطيني، في رواية غسان، إنْ قاتلَ وتمسكَ بشرفه، أو إنْ هرب مع عاره ولاذ بالفرار. يضيء هذا الوضع المأساوي السؤال اللحوح: «لماذا لم يقرعوا جدران الخزان؟»،

الذي يترجم قدراً ظالماً لا هرب منه، قرع الفلسطيني الجدار الصدئ أو ارتضى بمصيره ورحل صامتاً. وهذا الإشكال هو الذي يعين رواية غسان عملاً أدبياً فريداً، في مجال الأدب الفلسطيني، نفذ إلى قرار المأساة الفلسطينية بشكل غير مسبوق ولم يتكرر، حتى الآن[٣].

٣ ـ استهل غسان نصه بفلسطيني عاجز نموذجي، يجمع بين الوهم والشيخوخة وضعف الحيلة، وأعاد إنتاجه في شخصيات فلسطينية متعددة، تختلف في العمر وتتوزع جميعاً تداعياً قاتلاً. فالشخصية ـ المفتتح (أبو قيس)، احتاجت إلى «عشر سنوات كبيرة جائعة»، كي تصدق أنها فقدت الشجر والبيت والشباب والقرية كلها، والشاب (أسعد) لا يحرك ساكناً أمام ضابط بصق «على وجهه وأخذت البصقة تسيل ببطء نازلة من جبينه»، ولا أمام إنسان بليد سخر منه ونصحه بأن «لا تأكله الجرذان قبل أن يسافر». وكذلك حال «الصبي» الذي «مضغ ذله» حين هوت على وجهه يد ثقيلة متوعدة، وصفه صاحبها بأنه «ينوح كالأرامل...» والدليل العنّين، الذي قاتل وانهزم، وما يزال يعتقد أنه قادر على «قيادة» غيره إلى «أرض السعادة». بل إنّ في هذا الدليل طريقاً آخر إلى الموت، فهو دليل ـ جثّة، لا يستطيع الإنجاب، يسوق أمامه جثثاً أخرى، منتظراً بدوره قبراً ـ مزبلة. رسم غسان شرطاً مأساوياً، يفتقر إلى أبطال مأساويين، شرطاً أقرب إلى اللعنة، وقودُه بشر أضيق من شرطهم التاريخي، ووجهه الآخر صهيونية مقاتلة حملت معها، إضافة إلى الدعم الإمبريالي، حداثة أوروبية تضبط العلاقة بين الهدف والغاية. وإذا كانت المأساة، في بعدها التاريخي، تصدر عن مشروع صهيوني وعن فلسطيني يسير في درب لا يسيطر عليه، فقد جاء بعدها الوجودي من «صدفة عمياء» وقعت على الفلسطيني ولم تقع على غيره. فقد اختار المشروع الصهيوني فلسطين، بعد أن صرف النظر عن أوغندا وسيناء وموزامبيق والأرجنتين، مدخراً شقاء الاختيار لشعب فلسطين، الأمي في أغلبيته الساحقة، المحمل بإرث عثماني من الفقر والتخلّف وغياب الوحدة المجتمعية[٤]. وهذه الأسباب تمنع الفلسطيني، الذي يعيش شرطاً مأساوياً، من أن يكون بطلاً تراجيدياً، يحتشد، منطقياً، بقيم نبيلة يفتقر إليها اللاجئ الباحث عن ظلال الزيتون على حدود الكويت.

٤ ـ لماذا وضع الروائي في الشخصيات صفات تقودها إلى الموت، ولماذا اختار لها مصيراً قاسياً، جمع بين الموت اختناقاً والانتهاء إلى مزبلة، بلا قبر أو صلاة أو طقوس؟ يأتي الجواب من اتجاهين: تصور غسان كنفاني لمعنى اللجوء و«الفرار» من الوطن، ووظيفة الكتابة الأدبية في هذا التصور. كثف كنفاني معنى اللجوء في أحوال شخصياته وأقوالها وممارساتها، مساوياً بين الخروج من فلسطين والعار، فلا يهرب الإنسان من وطنه إلا إذا كان غير جدير به، وغير جدير بصفة الإنسان السويّ أيضاً. يتعين الموت في هذا التصور عقاباً عادلاً، إنه ثمن العار،

---

(٣) حول هذا الموضوع، انظر الدراسة اللامعة للناقد الفسطيني: يوسف سامي اليوسف، **غسان كنفاني: رعشة المأساة** (عمّان: دار أزمنة، ١٩٩٩).

(٤) عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، ط ٣ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣)، ص ٤٣ ـ ٤٥.

بقدر ما يفصح الموت المهيمن عن عار واسع، يكسو الفلسطيني من رأسه إلى قدميه. ولعل مساواة التخلي عن الوطن بالعار الشامل هي التي قادت غسان إلى وضع أبطاله في دائرة مغلقة مهلكة، لها باب وحيد ينفتح على الموت والمزبلة، وهي التي أملت عليه أن يسوقهم، بقسوة باردة، إلى مصيرهم الحزين.

إذا كان قبر الفلسطيني المكشوف جاهزاً في بداية الطريق أو في نهايته، فلماذا أرهق غسان كنفاني قارئه بسؤاله اللحوح: «لماذا لم يقرعوا جدران الخزّان»؟ ينطوي الإقرار بالموت الفلسطيني الذي لا هروب منه على الجواب، ذلك أن السؤال يدور حول عمق واتساع المأساة الفلسطينية، التي تتلبس باللعنة، لا حول لاجئين ضائعين خدعهم الطريق. انطلق غسان من فكرة العار، داعياً إلى «شرف فلسطيني» يمحو العار، ويعيد الفلسطيني «سوياً» كما كان. مع ذلك فإن منظوره، كما جاء في الرواية، يتوزع على اتجاهين:

تطرح رواية "رجال في الشمس" سؤال الهوية: من هو الفلسطيني؟ وما الشرط الذي يحقق هوية فلسطينية؟

اتجاه أول علاقاته اللجوء والوطن، يقضي بتوليد وعي فلسطيني متحرر من الأوهام، ويضبط العلاقة بين الغاية والوسيلة. والواضح في هذا الاتجاه بطولة القيم، فقد يقود الحس الأخلاقي النبيل إلى «الكفاح المسلح»، بينما لا يفترض الكفاح المسلح، دائماً، الانضباط الأخلاقي.

يحيل **الاتجاه الثاني** إلى «اللعنة»، أو إلى تعقد المأساة الفلسطينية، التي تواجه إسرائيل والحداثة الأوروبية التي أنتجتها، مصيّرة «تحرير فلسطين» إلى هدف صعب «بعيد».

قرأ غسان مأساة الفلسطيني في الفرق بين إمكانياته وإمكانيات عدوّه، وفي «تخلّف عربي» لا أفق له. فـ «العرب» الذين قابلهم الفلسطيني، وهو ينتقل من بلد عربي إلى آخر، يتميّزون بالغلظة والجشع والكذب، يضيفون إلى الفلسطيني المقهور قهراً جديداً. لا غرابة إن كتب غسان رواية مفعمة بالتشاؤم في زمن بدا متفائلاً: ١٩٦٣، حيث القومية العربية صاعدة، وحديث التحرر مسيطر، و«الناصرية» عالية الصوت في كل مكان، موحياً بأن للفلسطيني قدراً خاصاً به لا يتقاسمه مع جميع العرب.

واجه غسان فكرة العار بفكرة الشرف، مبتدئاً من الإنسان لا من «قدسية التراب»، موحّداً بين الانتماء إلى فلسطين وبطولة القيم. قاده الاتجاه الثاني القائم في سؤاله إلى فكرة أكثر تحديداً عنوانها: الاستعداد الكامل الطليق للموت، الذي يجعل الإنسان الحقيقي سيداً على مصيره، ويتيح له أن يواجه «اللعنات» متى يشاء وبالطريقة التي يشاء. فصل غسان في أعماله الأدبية، باستثناء روايته **أم سعد**، بين البطولة والانتصار، والفعل البطولي ومآله، معتبراً أن معنى الإنسان ماثل في ما أراد لا في ما وصل إليه. قاده هذا الفصل، القريب من «عدمية مقاتلة»، إلى فصل موازٍ بين الموت المثمر الذي يرعى الحياة والحياة العقيمة التي تحتفي

بالموت. وبسبب ذلك تبدو **رجال في الشمس** رواية عن الموت في شكليه: فالحياة الذليلة التي يساكنها موت ذليل واضحة في اللاجئ الذي باع عائلته طمعاً بغرفة من الأسمنت، وفي المرأة الكسيحة التي تشتري زوجاً بغرفة مريحة، وفي الدليل الذي يهرّب أرواحاً ويزهقها، وفي موظف الحدود المشغول براقصة وهمية...، أما الموت المزهر، فيتوزع على الفلسطينيين الذين تمسكوا بتراب وطنهم ودُفنوا فيه.

٥ ـ تطرح رواية **رجال في الشمس** سؤال الهوية: من هو الفلسطيني؟ وما الشرط الذي يحقق هوية فلسطينية؟ يأتي الجواب من شكل الموت الذي يختاره الفلسطيني أو يأتي، بلغة أقل مأساوية، من عالم القيم، حيث «الفلسطيني الجوهري» حريص على شرفه. بيد أن تعقد المسألة الفلسطينية، الذي يحيل إلى عالم القيم والوعي التاريخي ومبادئ الحداثة، يجعل سؤال الهوية أكثر صعوبة، ويحوّل الهوية المنشودة إلى مشروع مستقبلي مفتوح. فإذا كانت الهوية لا وجود لها، نظرياً، إلا بمواجهة هوية مهدِّدة مغايرة، فإن تحقق الهوية المهدَّدة يقاس بقدرتها على هزيمة نقيضها، أو إخضاعه، وهو سؤال مرهون بميزان القوى لا بمبادئ الأخلاق(٥).

يكشف الكفاح من أجل هوية وطنية متسقة عن الفرق بين التصور الفقير للكفاح الفلسطيني، الذي يربط حياة القضية بحياة الناطقين باسمها، والتصوّر الأخلاقي للتحرر، الذي يعتصم بالقيم الكبيرة وينبذ «المساومات الموسمية» جانباً.

بدأ غسان من سؤال العار ووصل إلى المأساة الشاملة، وتأمل علاقة الفلسطيني بعدوّه، وطالب بـ فلسطيني نوعي مزوّد بالأخلاق والوعي والمعرفة يقاتل، بثبات، ولا ينتظر نصراً قريباً. يصبح الفلسطيني، تعريفاً، الإنسان السائر أبداً إلى التحرر من «عاره»، وإلى استئناف حياة سويّة ممكنة وغير ممكنة معاً.

ثانياً: «ما تبقى لكم» والتدرّب على مسح العار

من أقوال غسان كنفاني: «كان الفرار موتاً». تكثّف الجملة حكاية **رجال في الشمس** والقول الذي أرادت البرهنة عنه. فهي ترى في «الفارّين» أمواتاً أُجِّلّ دفنهم، أو موتى بلا قبور، إمّا لأن أنفاسهم لم تخمد تماماً، حال الدليل العاجز، أو لأنهم غير جديرين بقبور تسترهم. يسرد الحرمان من القبر حكاية الأموات الذين حرموا منه، ويعلن أنهم لا يساوون البشر العاديين الذين ينتهون إلى قبور تخصهم. يظهر عارُ الفرار في عار لاحق، ويرمي على الفلسطيني بفضيحة لا يستطيع التستر عليها.

١ ـ عاد غسان إلى موضوع العار في روايته اللاحقة **ما تبقى لكم** (١٩٦٦)، محاولاً أن يرتب، كتابياً، عالماً فلسطينياً «غير مرتب» على الإطلاق، كما جاء في «التوضيح» الذي تُستهل به

---

(٥) انظر: **العروبة وفلسطين: حوار شامل مع قسطنطين زريق**، أجرى الحوار محمود سويد، مرجعيات؛ ٢ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٦).

الرواية. وإذا كان في روايته **الأولى** قد ترجم وجوداً فلسطينياً ينضح بالعار، دون أن يلجأ إلى الكلمة إلا بقدر محدود، فهو في روايته **الثانية** يتناول حكاية العار، بشكلها الأكثر مباشرة، رابطاً، رمزياً، بين البعدين الاجتماعي والوطني. تُحدّث الرواية عن أنثى «فقدت شرفها» وتزوجت «بعد الحمل» زواجاً بائساً، تخفيفاً من «الفضيحة» التي لا يمكن تخفيفها. بيد أن الحكاية، التي تبدو تقليدية، لا تلبث أن تحتشد بأبعاد رمزية تدع «العار الوطني الفلسطيني» عارياً. فعائلة الفتاة المستباحة هربت، في عام سقوط فلسطين، من يافا إلى غزة، وهو ما يعين الهرب مبتدأ للعار، مخلّفة وراءها، بسبب الرعب و«ضيق القارب» «أماً ضائعة»، إشارة إلى عائلة رخوة يتلو كل خلل فيها خلل آخر. وواقع الأمر أن غسان الساخط على شعب رخو، يفتقر إلى العزيمة ووضوح الحسبان، يرسم وجوداً فلسطينياً يدفعه تداعيه، بشكل مستقيم، إلى الكارثة. فقد فقدت العائلة «الأب» قبل الهرب، وضاعت «الأم» لحظة الهرب، وسقط «شرف الفتاة»، لاحقاً، بعد أن رحلت «الخالة المريضة»، تاركة وراءها «شابة جائعة» وصبياً تائهاً، في انتظار «جنين غير شرعي»، وزواج ما هو بالزواج بـ «صداق مؤجل».

يستأنف غسان في **ما تبقى لكم** التصور الذي أقام عليه **رجال في الشمس**. فمثلما أن «الفرار موت»، يواجه اللاجئ في بداية الطريق أو نهايته، فإن «الفرار عار»، يتكشّف في عام الهرب أو بعده بقليل. يصبح العار موتاً آخر، ويتعيّن «الفرار» مرجعاً للموت والعار معاً، فهو الخطيئة القاتلة التي تبدّل معنى الموت والحياة، وهو البداية الزمنية لاغتراب لا خروج منه، ولسقوط مدوٍّ لن يعود الوجود الفلسطيني بعده كما كان. ومع أن في حاضر اللجوء بؤساً معلناً، فإن آماد البؤس لا تتجلّى واضحة إلا باستذكار صورة الوطن الذي كان. كانت الفتاة المستباحة، قبل عام الفرار، ذكية لامعة واعدة ـ «وردة المنشية» ـ تنتظر زوجاً محترماً قبل أن تتزوج، وهي حامل في شهرها الرابع، من «لاجئ نتن» متزوج وله خمسة أطفال. يجعل السقوطُ من زمن إلى آخر، ومن مكان إلى غيره، الموتَ حاضراً قبل مجيئه، والعارَ حاصلاً قبل وقوعه، فلولا الفرار لما جاء الموت المهين ولا ضاع الشرف. ولعلّ وحدة الموت والعار، الذي هو موت آخر، هي التي تدفع بالسارد إلى القول: ما تبقى لكم، «ما تبقى لي، ما تبقى لها»...، والمتبقي «جُحر قميء»، وزوج «يشبه القرد»، وأم غائبة منذ ستة عشر عاماً...

٢ ـ ميّز غسان بين المأساة الأصل، والمآسي الصغيرة اللاحقة، التي تعبّر عن المأساة الكبرى ولا تضيف إليها شيئاً من جهة، والعار ـ الأصل، الذي يتناسل طليقاً في عار فتاة أو عائلة، من جهة أخرى. وبسبب سيطرة الأصل على غيره، يكون فلسطينيو اللجوء شظايا إنسانية لا قوام لها، أو دمى مستسلمة يتصرف بها الزمن ولا تسيطر عليه في شيء. ولهذا تذهب «الأرواح الميتة» إلى التمني: «لو كانت أمك هنا، وأمه لم تكن هناك أبداً، ولو كانت جدتك هنا، لو... لو... منذ ستة عشر عاماً، وهو يقول لها: لو كانت أمك هنا»[٦]. والأم هي «الأرض القريبة»، التي لا يمكن الوصول إليها، التي تقود الفلسطيني إلى «موت جاهز»، يسبقه العار وتتلوه الفضيحة.

---

(٦) كنفاني، **الآثار الكاملة**، «ما تبقى لكم»، ص ١٧٩.

عيّن السارد «الوجود الآسن الفلسطيني» بشخصية الزوج، الذي انتهت إليه «وردة المنشية»، وأعطاه صفات مطابقة: «الكلب الذي سيصبح صهره، كان ضئيلاً بشعاً كالقرد، مجرّد لطخة في مكان غير مناسب، النتن، المخادع، الواشي، المتطامن أمام الإسرائيليين...». ومع أن الصفات، في سلبها الموجع، تقع على فرد محدد منحطّ الأخلاق، فهي تقع، في الوقت نفسه، على الشخصيات التي قبلت به، متمثلة بالفتاة المتعلمة الجميلة العريقة الأصل، التي هي «القضية الفلسطينية» في التحديد الأخير، أو بـ «الصبي»، الذي سقط والده في فلسطين. ولهذا يقول الصبي: «أنت ملطخة وأنا مخدوع... لو كانت أمك هنا... لقد تركته يلوّثها»... (ص ١٦٥ ـ ١٦٧). يبدو المآل الفلسطيني، بعد الهرب، ملوّثاً وملطخاً ومخدوعاً، ويبدو كل شيء «مؤجّلاً»، كما لو كانت الروح الفلسطينية قد أدمنت المهانة. وكما هو الحال في **رجال في الشمس**، يكشف غسان عن كراهية شديدة لذلّ شعبه، وعن مقت حارق لهوانه ومسكنته، والكلمات الثلاث: الذلّ، المهانة، المسكنة، واردة في روايتيه غير مرة. أين تكمن المأساة الفلسطينية في هذه الحدود؟

تأتي المأساة من الفقْد، الأمان المنقضي واليسر الراحل والتميز الاجتماعي المندثر ولوعة الفقْد، التي تجعل الماضي علاقة في الحاضر، ومن العجز عن استعادة ما كان أو نسيانه: «منذ ستة عشر عاماً، وهو يقول لها: لو كانت أمك هنا»، «لو كانت أمي هنا لكان لجأ إليها»، «أي بؤس أمضيت حياتك فيه جعلك تقبلين بهذه النهاية، أي حياة تعسة جعلتك تقبلين به»، «لقد جعل من أمه البعيدة ملجأ يؤمه ذات يوم صعب، وانصرف إلى تكبيره وإعداده إلى درجة نسي فيها أن يبني في نفسه رجلاً لا يحتاج في اليوم الصعب إلى ملجأ» (ص ١٩٤ ـ ١٩٥). تصدر المأساة، في وجه منهما، عن الخطيئة ـ الأصل، وتصدر صارخة، وفقاً لمنطق غسان، عن الاستكانة الفلسطينية التي تجافي مبادئ الكرامة البسيطة، وعن انتظار بليد لا ينتظر شيئاً[٧]. وغَضَبُ غسان الحارق على شعب لا يعرف معنى الزمن، يدفعه إلى تحديد سنوات الانتظار القاتلة. فهو يشير في **رجال في الشمس** إلى عشر سنوات من الانتظار البليد، وإلى ستة عشر عاماً من عقم الانتظار في «ما تبقى لكم»، وإلى عشرين سنة من وهم الذكريات في **عائد إلى حيفا**. أملى عليه انتباهه إلى قيمة الزمن ومعناه، كما تصوره الغاضب من بشر يساوون بين الزمن والانتظار، إلى تعيين «الساعة» شخصية بين شخصيات أخرى، ترصد اليقظة والهمود ونبض القلب وحركة اليد، وتنطق باسم الموت والميلاد دمعاً.

٣ ـ خلق غسان شخصيات **ما تبقى لكم**، ثم قذف بها إلى قرار المذلة، كي يأخذ بيدها إلى تمرد لا ضمان فيه، يستوي فيه الربح والخسارة، كما لو كانت قيمة التمرد قائمة فيه لأنه قيمة عليا، دون النظر إلى النتائج اللاحقة به. تمثّل ذلك في واقع الفتاة ومآلها: عانس تعتمد على أخ لا يُعتمد عليه، تعيش في «جحر قميء» في منطقة بائسة، ترى إلى ساعة تشبه «النعش» تتزوج، دفعاً للعار، بـ «صداق مؤجل»، من رجل متزوج يشبه القرد. وهذا الأخير، الذي خدع صديقاً ووشى بآخر أعدمه الإسرائيليون، يطلب من زوجة لم تكلفه شيئاً «الإجهاض»، ويهددها

(٧) يجد القارئ مدخلاً إلى موضوع المأساة، في: Rebecca Bushnell, *Tragedy: A Short Introduction*, Blackwell Introductions to Literature (Malden, MA: Blackwell Pub., 2008), esp. chap. 3, pp. 52-83.

بالطلاق والعقاب... يراكم غسان مذلة لا تُحتَمل، مستعيداً، بشكل آخر، جملة «لماذا لم يقرعوا باب الخزّان؟»، ليقول إن مأساة الفلسطيني هي الفلسطينيون أنفسهم، الذين يبلعون الحصى والحجارة والغبار والأسلاك الشائكة، دون أن يلتفتوا إلى حلوقهم، أو يرفعوا شكوى قليلة أو كثيرة. إنه يضع إصبعه في عيون المستذلين المهانين، كي يعلمهم فضيلة الوقوف، ويخبرهم بأن أي خيار يقعون عليه أفضل من البؤس الذين يعيشونه. ولذلك يدعو إلى تمرد بلا ضمان، وإلى خروج من الجلد المستهلك القديم، سيّان إن حصل الفلسطيني على قميص أو بقي عارياً، لأن قبوله بالمهانة المستديمة هو: العري الكامل، الذي يتناسل منه عار متعدد الوجوه.

يتجلى التمرد الذي لا ضامن له في مآل الصبي، الذي علك أسنانه طويلاً ولم يعرف قبر أبيه ولا مكان أمه، وفي مآل أخته، التي اتخذ منها «القرد الواشي» تسلية مجانية يختلف إليها وهو راجع من المدرسة إلى بيت زوجته الأولى، أو ذاهب منه إلى المدرسة. كأن غسان يسوط «شخصيتيه» لتتمردا، فهو خجل من عجزها وخجل أكثر من انتسابها إلى الشعب الذي ينتسب إليه. ومع أن في مآل الشخصيتين ما يوحي بالانتصار، فهو أقرب إلى «الخسارة» من أي شيء آخر: فالفتاة تحمل سكيناً وتقتل زوجها، والصبي يتأهب لقتل جندي صهيوني في مكان يسيطر عليه الجيش الإسرائيلي. أراد غسان أن يعطي المستذلين درساً في الوقوف، يحررهم من عار الخضوع ولا يعدهم بشيء، لأن الإحساس بالعار والتمرد عليه هو الانتصار الأكبر. لكن تحرر الفلسطيني من عاره، الذي هو جوهر مأساته، يحمل في طياته مأساة لاحقة، فلا قتل «الواشي القبيح» يعطي للمرأة حياة جديدة، ولا قتل الجندي الإسرائيلي يستقدم الأم البعيدة. فما يتغير يدور داخل الفلسطيني ولا ينفتح على خارجه، وما يختلف لا يبدل من المعيش الفلسطيني شيئاً.

مأساة الفلسطيني هي الفلسطينيون أنفسهم، الذين يبلعون الحصى والحجارة والغبار والأسلاك الشائكة، دون أن يلتفتوا إلى حلوقهم.

٤ ـ يضع العالم الفلسطيني المغلق على أحزانه وأوهامه وتمرده، في كتابة غسان، نبرة مأسوية واسعة، ذلك أن الفلسطيني مهان إن صمت وخاسر إن تحرك. ولأن الخسارة الآتية من الصمت أكثر فداحة من الخسارة المتأتية من التمرد، يكون على الفلسطيني أن يتكيّف مع «الموت» ولا يهابه أبداً. تنتهي الرواية بالكلمات التالية: «أضاء شعاع الشمس الضيق المسترب من النافذة خطاً رفيعاً من الدم (...) ودوّى صوت الصمت فجأة» (ص ٢٣٣). تنطوي جملة «أضاء شعاع الشمس»، كما «ودوّى صوت الصمت»، على نبرة انتصارية، دون أن تكون انتصارية على الإطلاق، فما يجري «داخل الفلسطيني» لا يمسّ «خارجه» في شيء. يقول الصبي الذي اختار التمرد: «لقد حملت أمي السر معها وتركتنا. ما تبقى لها ما تبقى لكم. ما تبقى لي. حساب البقايا. حساب الخسارة. حساب الموت. ما تبقى لي في العالم كله: ممر من الرمال السوداء، عبارة بين خسارتين، نفق مسدود من طرفيه. كله مؤجّل، كله مؤجّل» (ص ٢١٥).

إن «المتبقي الفسطيني»، كما يقول الصبي، بؤس يجر الفلسطيني إلى موته، أو موت يحرّر الفلسطيني من بؤسه. وإذا كان «المتبقي الفعلي» موتاً مهيناً، فمن الأفضل والأرشد أن يختار الفلسطيني «موتاً كريماً» يستر به عريه وعاره معاً. أعاد غسان في **ما تبقى لكم** حكاية **رجال في الشمس** بشكل آخر. رسم في الرواية **الأولى** بائسين، اختار لهم دليل بائس موتاً بائساً، ورسم في الرواية **الثانية** بائسين طردوا «الدليل» ـ البشع كالقرد ـ واختاروا موتاً مغايراً. والنتيجة، في الحالين، هي الموت، وإن كانت «موت عن موت يفرق»، وهو ما عبّر عنه غسان بصيغة أخرى، حين قال على لسان «أم سعد»: «خيمة عن خيمة تفرق»[٨]. أخذ «الواشي القبيح»، في **ما تبقى لكم** دور الدليل في **رجال في الشمس**. فالطرفان فلسطينيان، وكل منهما أناني مهزوم مشغول بمنافعه الفقيرة. وإذا كان **الأول** قد دفع فلسطينياً بائساً إلى قتله، فقد تابع **الثاني** حياة خالية من الحياة، فهو عقيم وعاجز عن الإنجاب.

ترجم غسان في **ما تبقى لكم** جملة «لماذا لم يقرعوا جدران الخزّان؟» بتشاؤم أقلّ، فهؤلاء الذين ينتظرون في «خزّان لا يطاق»، خرجوا منه وقتلوا «سائق الشاحنة». شرح المؤلف في رواية كثيفة الرموز معقدة «مبادئ التمرد على العار» وأساليب مواجهته: المغامرة، «التحالف مع الطريق»، استعمال السكين، النقد الذاتي والخروج من «القبر» إلى سطح الأرض،... ومع أن الروائي شاء بنية فنية غير تقليدية، فقد كان مسكوناً بهدف تربوي، يفصل بين الزائف والحقيقي، وبين ما هو قائم وما يجب أن يكون. عيّن «الزمن» شاهداً على الانتقال من مكان إلى مكان، ومن «أرواح آسنة» إلى أرواح مضطربة قلقة متوترة، إعلاناً عن وليدة سعيدة حزينة: سعيدة هي لأنها تمسح العار بالتضحية بالذات، وحزينة هي لأن مآل «الفرد الشجاع» لا يساوي مآل القضية التي يدافع عنها. فبين رغبة الأفراد ومشيئة التاريخ هوة يحتاج تجسيرُها إلى زمن لا يمكن حسبانه.

ثالثاً: عائد إلى حيفا والصهيوني المعلّم

شرح غسان في **ما تبقّى لكم** الطريقة الوحيدة التي يستعيد بها الفلسطيني «شرفه المفقود». أمّا في روايته **عائد إلى حيفا**، فيشرح الفرق بين «الإنسان الشريف» ونقيضه، مقرّراً أن «الإنسان قضيّة»، وأن الشريف هو الذي يقاتل من أجل قضيته، وأن الإنسان المجلّل بالعار هو الذي يتخلّى عنها ويتركها في العراء. يتمثّل «الشريف»، الذي أدار غسان حديثه عنه بـ «المقاتل الصهيوني»، الذي التزم بقضية آمن بها، وقاتل من أجلها ومات في سبيلها[٩].

١ ـ تدور الرواية حول زوجين فلسطينييْن من حيفا أنساهما رعب الخروج، في «صباح الأربعاء الواقع في ٢١ نيسان/أبريل ١٩٤٨، طفلهما، وعادا يبحثان عنه، بعد حرب ١٩٦٧، التي جعلت فلسطين موحّدة تحت الاحتلال الإسرائيلي. اكتشف الزوجان أن الطفل أصبح

---

(٨) كنفاني، المصدر نفسه، رواية «أم سعد،» الفصل الثاني، ص ٢٥٧.

(٩) فيصل دراج، **ذاكرة المغلوبين: الهزيمة والصهيونية في الخطاب الثقافي الفلسطيني** (الدار البيضاء؛ بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢)، ص ٥٩ ـ ٦٥.

مجنداً في الجيش الإسرائيلي، بعد أن عثرت عليه ورعته وتبنّته امرأة يهودية. تحكي الرواية عن معنى الاسم وانتقال الملكية ووظيفة الأبوّة والأمومة وحقوق «الملكية الشرعية» ودلالة النسب والانتماء. أخذ «الطفل المفقود» اسماً يهودياً «دوف»، فمن يظفر بشيء يحق له تسميته، وأخذ انتماءً جديداً يطابق انتماء الطرف اليهودي الذي تعهده بالرعاية، وألزمه «التبني» بمهنة أبيه، الذي قاتل من أجل «أرض إسرائيل» ومات في سيناء. فلا ملكية إلا بالدفاع عنها، لأن الملكية تملك الأدوات التي تحمي الملكية.

بحث الفلسطينيان عن «طفلهما الضائع» مدفوعيْن بالذكريات و «بداهة الحق»، ناسيْين أن «التسمية» من حقوق الملكية، وأن الاحتفاظ بالملكية فعل مقاتل، لا يلتفت إلى «التوريث الطبيعي». وبسبب ذلك، فإن الطفل الفلسطيني، الذي لم يعد طفلاً ولا فلسطينياً، يسخر من «عربي مهزوم»، هو أبوه القديم، الذي أقنعته أوهامه أن «الوطن حفنة من الذكريات»، وأن ما تدّعيه الذاكرة يلبّيه الواقع. وضع غسان في رواية عقلانية محاكمة اللاجئ الفلسطيني في مواجهة المحتل الصهيوني، وأدار بينهما حديثاً واضحاً عن الوطن والالتزام، منتهياً إلى نتيجة «منطقية» تقول إن الأرض لمن يقاتل في سبيلها، وإن من لا يُحسن القتال عن أرضه لا أرض له، وإن «الطفل» من حق الطرف الذي تعهّده بالرعاية، لا من حق الطرف الذي أنجبه.

تحدّثت رواية **عائد إلى حيفا** عن الوطن والملكية والشرف، قائلة بـ «إسرائيلي شريف»، وبفلسطيني لن يستعيد شرفه إلا إذا قاتل عدوّه بأدوات عنوانها: الاستعداد المستمر للموت في سبيل الوطن. انتهت الرواية، في علاقاتها المختلفة، إلى ثلاث نتائج، هجس بها الروائي ولم يسيطر عليها تماماً. تقول **الأولى**: استولد الصهيوني حقه مرتكناً إلى جدارة ذاتية ملتزمة مقاتلة، مؤكداً أن الحقّ من القوة، وأن المقاتل من أجل حقّه يحيل إلى «الشرف»، قبل أن يحيل إلى صفات أخرى. وتقول **الثانية**، يصبح الفلسطيني جديراً بوطنه المغتصَب، إذا حاكى عدوه في التزامه المقاتل، ووحّد مثله بين الفعل والعقيدة، وبين الفكرة والموت من أجلها. تفضي النتيجتان إلى **الثالثة** التي تقول: أنجز الصهيوني فعلاً منطقياً ومشروعاً وأخطأ في اختيار المكان، لا أكثر، لأن مشروعه شرّد أهل حيفا وحرمهم من وطنهم.

تقوّض النتائج الثلاث التقييم الأخلاقي للحق والباطل، معتبرة القوة مرجعاً للطرفين، وتؤكد التاريخ مساحة مفتوحة، تمتثل إلى الصراع المادي ولا تلتفت إلى الذكريات والأماني. ولعلّ مفهوم القوة الواعية لأهدافها، كما الهدف الذي يقترح وسائل تحقُّقِه، هو الذي يعيّن المقاتل الصهيوني أستاذاً للفلسطيني، الذي يريد أن يسترجع وطنه. فقد «خلق» الصهيوني انتصاره، حين عثر على «طفل مهجور» وربّاه وأعطاه اسماً، وخلق الفلسطيني هزيمته، أو عاره بشكل أدق، حين تخلى عن وطنه و«طفله» معاً. تدور العلاقة بين وطن «عُثر عليه» وآخر أضاعه صاحبه، من ناحية، وبين إنسان يعرف معنى التضحية والالتزام الوطني وآخر تساهل في الأمرين معاً. تلخص الرواية قولها في الجملة التالية: «كيف يستطيع من هو ليس أمه وليس أباه: أن يحتضناه ويربّياه عشرين سنة؟». تنقد الرواية، التي أخذها غسان من أسطورة قديمة حوّلها الألماني بريشت إلى مسرحية، النزعة الاسمية، التي تساوي بين الكلمات والأشياء، معتقدة أن القول بفلسطين امتلاك لها. كشف اللقاء المباشر بين الفلسطيني والصهيوني عن

وَهَن القول وصلابة الفعل، وعلّم الأول أن الصدام مع العدوّ يقضي بالتعرّف إليه.

يقول الفلسطيني المصدوم بعد أن أيقظته الصدمة من أوهامه: «فلسطين، بالنسبة لنا، مجرد تفتيش عن شيء تحت غبار الذاكرة، ماذا وجدنا تحت ذلك الغبار... غباراً جديداً أيضاً» (ص ٤١٢). ولأن فلسطين أكثر من ذاكرة، يلتقي الفلسطيني بالجندي الصهيوني ولا يلتقي بفلسطين، التي يحتاج اللقاء بها إلى أكثر من ذاكرة، وهو أمر يتفق عليه الصهيوني والفلسطيني، «الذي رأى في الصهيوني أستاذاً له». ولهذا يقول الأول متوجهاً إلى الثاني: «تستطيعان البقاء مؤقتاً في بيتنا فذلك شيء تحتاج تسويته إلى حرب» (ص ٤١٣)، ويقول الفلسطيني متوجهاً إلى زوجته: «ألم أقل لك.. إنه كان يتوجب علينا ألّا نأتي. وإن ذلك يحتاج إلى حرب؟ هيا بنا» (ص ٤١٣). أقام غسان نصّه على منظور عقلاني صارم، قوامه وحدة الحق والدفاع عنه، دون تزيّد بلاغي، لا يضيف إلى الموضوع الأساسي شيئاً. فقد قابل الصهيوني المنتصر الفلسطيني المهزوم، وحاوره وحاججه واستعد لاستضافته، ذلك أن ما هو أساسي في تصور غسان يتعيّن بالممارسة والقيم، التي تجمع بين الصهيوني المتحقق والفلسطيني كما يجب أن يكون. يتبادل الصهيوني المتحقق والفلسطيني المحتمل المواقع، فالأول هو الثاني بعد أن مسح عاره، والثاني هو الأول الذي حافظ على شرفه. تتكشّف هذه المعادلة المضطربة في قول الفلسطيني المهزوم: «إن دوف هو عارنا، ولكن خالد هو شرفنا الباقي». العار هو «خلدون» الذي أضاعه أبواه وأصبح صهيونياً، والشرف هو أخوه الفدائي الذي سيصبح «دوف» فلسطينياً. والنتيجة صهيوني مقاتل وفلسطيني تدرّب على السلاح، يتقاسمان الجدارة إلى تخوم التطابق. ومهما يكن مآل الحرب، التي يحتاج إليها الطرفان، فالمشترك بينهما واضح محدَّد بيِّن: الالتزام بشرف القتال والبرهنة، في الحالين، أن الإنسان قضية.

قصدت رواية "عائد إلى حيفا" تعرّفاً مزدوجاً: التعرّف إلى الآخر الصهيوني والتعرّف إلى "مادة" الفلسطيني الذي يريد أن يحاربه.

نقرأ في الرواية: «إن الإنسان هو في نهاية الأمر قضية، الدموع لا تسترد المفقودين ولا الضائعين، ولا تجترح المعجزات (...)، أفتش عن فلسطين الحقيقية، فلسطين التي هي أكثر من ذاكرة». تتوزّع هذه الأقوال على الصهيوني، الذي يعيش قضيته بلا أوهام، وعلى الفلسطيني بعد أن قابل الصهيوني ورأى الحقيقة عارية. تساوي فلسطين الحقيقية، في تصور غسان، الفلسطيني الحقيقي المنتسب إليها، الذي يساوي بدوره مُثُلاً إيجابية، لا تقبل بالعار والاستسلام. فلا معنى للأرض إن لم تكن وطناً، ولا وجود للوطن إلا بإنسان مزوَّد بالأخلاق والشجاعة والمعرفة، ينجبه الوعي والإرادة، إنسان ـ احتمال، يجب نقله من حيّز الفكرة إلى حيّز الواقع. ولهذا، فإن الحديث عن «فلسطين حقيقية» حديث عن «فلسطيني حقيقي»، يجب توليده، يختلف عن «الفلسطيني المعطى» المشغول بـ «الغبار» والذكريات.

٢ ـ رأى غسان في استعادة فلسطين المحتلة مشروعاً نوعياً استثنائياً، يحتاج إلى

فلسطيني استثنائي متحرر من ماضيه السلبي وحاضره القائم على الذكريات. دفعه هذا المنظور إلى تأكيد عنصرين: تأكيد دور الممارسة، إذ الرجوع إلى فلسطين بحث مستمر عن العناصر التي تؤمن ذلك، والإيمان بتوليد جديد حاسم، يغاير الفلسطيني الذي سبق سقوط فلسطين وتلاه. ولعل توليد الأسئلة من حيّز جديد هو الذي أملى على غسان أن يخلق فلسطينياً يعرف الصهيوني ويتعرّف إليه عن قرب، ولا يكتفي بصورة متوهمة له. فقد انصرف الخطاب المسيطر، بعد هزيمة ١٩٦٧ وقبلها، إلى رسم صورة مجردة لصهيوني مجرد، يستطيع الفلسطيني أن يقاتله دون أن يعرفه، ودون أن يعرف ذاته أيضاً. قصدت رواية **عائد إلى حيفا** تعرّفاً مزدوجاً: التعرّف إلى الآخر الصهيوني تعرّفاً فعلياً، والتعرّف الفعلي إلى «مادة» الفلسطيني الذي يريد أن يحاربه.

استعاد غسان، في الشرط الفلسطيني، قاعدة سقراط: «إعرف نفسك»، التي تأخذ لدى الفلسطيني شكلاً آخر: إعرف نفسك كي تعرف عدوك، فتقييم العدوّ إعادة تقييم للذات، واعرف عدوك كي تعرف نفسك، فالمعركة معرفة قبل أن تكون شجاعة. تأمر القاعدة، في وجهيها، الإنسان الفلسطيني المقاتل ـ أو الذي يريد القتال ـ أن يخلع جلده القديم، وأن يعرف الفرق بين الجلد المتساقط المهزوم والجلد الجديد المطلوب الحصول عليه. يقول «دوف» العسكري الصهيوني مخاطباً الفلسطيني العاجز: «ماذا فعلت خلال عشرين سنة كي تسترد ابنك؟ لو كنت مكانك لحملت السلاح من أجل هذا، أيوجد سبب أكثر قوة؟ عاجزون... عاجزون،... مقيّدون لتلك السلاسل الثقيلة من التخلّف والشلل».. (ص ٤٩). ما يقوله العسكري الصهيوني للفلسطيني هو ما يجب أن يقوله الفلسطيني العاجز لنفسه، وهو ما يقوله غسان، الذي يتفق كلياً مع كلمات المجند الإسرائيلي(١٠).

ينطوي لقاء الفلسطيني مع عدوّه على عدة وجوه: معرفة الذات عن طريق الآخر، التعرّف إلى الآخر والتعلّم منه، إدراك معنى المقارنة، إذ لا معنى لإنسان إلا مقارنة بآخر، الوصول الطوعي إلى النقد الذاتي، الحضّ على الاكتشاف والتجربة، فلولا اللقاء بالآخر المسلّح لما تحرّر الفلسطيني من أوهامه،... تترافد العناصر المختلفة مفضية إلى العنصر المسيطر الحاكم لها جميعاً المتمثل بـ «عالم القيم الوطنية الحقيقية»، الذي يبدو المجند الصهيوني مرآة له، ويتطلع الفلسطيني ـ الذي صدمته التجربة ـ إلى محاكاته. والسؤال الضروري الذي لا بدّ منه هو التالي: لماذا أنتج نصّ غسان فلسطينياً ضاق بجلده، اقتنع بمحاكاة عدوه واعتبره مقاتلاً نجيباً؟ للجواب مداخل عديدة: **أولها** ذلك القانون القديم الذي يقضي على «المتأخر» بأن يقلد «المتقدم»، ويدفع بالضعيف إلى مطاولة القوي. يوحي هذا القانون، في سياق كتابة الرواية ـ ١٩٦٩ ـ بفكرة «فتنة المنتصر»، التي تقنع المهزوم بالتشبه بنقيض له حقّق انتصاراً ساحقاً، وهو حال الجندي الصهيوني في حرب ١٩٦٧. ويتعيّن المدخل **الثاني** باستراتيجية غسان الكتابية، التي ترمي إلى «الصدمة» التي تجبر الفلسطيني، إن كان عاقلاً، أن يقذف بأسئلته وإجاباته

---

(١٠) حول هذا الموضوع، انظر على سبيل المثال: جوزيف مسعد، **ديمومة المسألة الفلسطينية** (بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٩)، ص ٢١٣ ـ ٢٤٦ و٢٦٠ ـ ٢٦٤.

التقليدية جانباً، وأن يسعى إلى أسئلة وإجابات جديدة. يضاف إلى ذلك افتتان غسان المؤكد بفكرة «الموت الإرادي»، أو «الموت الشريف»، التي تلازم إنساناً نوعياً، يريد أن يختار موته، بعد أن فاته أن يختار ميلاده، كما جاء في مسرحية «الباب». يأتي المدخل **الثالث**، وهو يستدعي النظرية الأدبية، من مخادعة النص لكاتبه، حيث ينتج النصّ، في علاقاته المختلفة، القول الذي صاغه، لا القول الذي أراده مؤلفه.

٣ ـ لا تنفصل رواية **عائد إلى حيفا** عن نصوص سابقة، مسّ ذلك التجريب الفني أو القول التربوي المقصود: فقد حاول غسان إدراج تقنية وليم فوكنر في روايته **ما تبقى لكم**، كما يعلم الذين درسوا أعماله، واستعاد في **عائد إلى حيفا** مسرحية بريشت «دائرة الطباشير القوقازية»، وأعطاها «صياغة فلسطينية». وضع في العملين لقاء بين الفلسطيني وعدوّه، ووضع في العملين فلسطينياً قلقاً يذهب إلى مواجهة عدوّه. بيد أن ما هو مسيطر في النصّين، كما في نصوص أخرى، هو: فكرة العار، الذي سقط على الفلسطيني ودفع ثمنه، وفكرة استعادة الشرف المفقود، التي لا ترفع الفلسطيني إلى مقام «البطل»، بل تجعل منه «إنساناً سوياً»، لا أكثر ولا أقل، فلا وجود لإنسان سويّ أضاع شرفه.

العمل السياسي الفلسطيني فرّط بالعلاقة الضرورية بين الفعل الوطني والسياسة الأخلاقية، وبين الاقتراح السياسي والمعرفة الموضوعية بسياسة إسرائيل وأهدافها.

أقام غسان نصّه على ثنائية أساسية تتوالد في ثنائيات متناظرة: المقاتل والمستسلم، القادر والعاجز، السويّ والشاذ،... تحتضن الثنائية، في وجوهها المختلفة، الصهيوني والفلسطيني، الذي ينفي كلّ منهما الآخر، وتظل مشدودة إلى مقولة «الإنسان السويّ»، الذي يلبّي القيم السويّة، صهيونياً احتل أرض غيره أو فلسطينياً سقط في الشذوذ وتخلّص منه. ولعل فكرة «الجوهر الإنساني»، كما فكرة الإنسان الذي يتصرّف بأقداره ولا يدع أقداره تتصرف به، هي التي جعلت غسان يستقدم يهودياً من خارج فلسطين إلى داخلها، كي تطلب من الفلسطيني أن يتحرر من «خارج فلسطين» وأن يستعيد «داخلها».

انتهى نص غسان إلى ثنائية: الجلّاد اللامع والضحية القادرة على التعلّم. يتبادل الطرفان الاتهام ويتفقان على المضامين. يقول الإسرائيلي للفلسطيني: «لقد أمضيت عشرين سنة تبكي، أهذا ما تقوله لي الآن؟ أهذا هو سلاحك المفلول»؟.. (ص ٤٠٩). يعيد الفلسطيني، وهو يخاطب زوجته، ما قاله عدوّه بشكل آخر: «لقد شاخت هذه المرأة حقاً، واستنزفت شبابها وهي تنتظر هذه اللحظة، دون أن تعرف أنها لحظة مروعة». إن اللحظة المروعة محصلة لعشرين سنة من البكاء والأوهام، واللحظة «الرائعة» هي استبدال «السلاح المفلول» بسلاح آخر. تنتهي الرواية بجملة قصيرة واضحة: «أرجو أن يكون خالد قد ذهب... أثناء غيابنا!». إن خالد «الفدائي» امتداد مغاير لـ «خلدون» الذي أضاعه والداه، وصورة عن «دوف» المجند الإسرائيلي. إنه الشرف الفلسطيني المتحقق، الذي يختلف مع الشرف الصهيوني على «الأرض»، ولا يختلف

معه في القيم. فلو كان الصهيوني فوق أرض أخرى لكانا «توأمين»، فكلاهما مستعد للموت في سبيل قضيته.

رابعاً: ما الذي تبقّى من غسان في زمن مختلف؟

عزا كنفاني «العار الفلسطيني» إلى وهن الكرامة والجهل بحقيقة المأساة الفلسطينية، في عناصرها المعقدة المركبة، ورأى بداية الحل في أخلاق نوعية ومعرفة جديدتين. ومع أنه نقد خطاب «منظمة التحرير» نقداً شديداً ـ بعد هزيمة حزيران/يونيو ١٩٦٧ ـ، فقد رأى في «الكفاح المسلح»، وكما رسمه في روايته **أم سعد**، مدخلاً إلى مرحلة فلسطينية نوعية، «اعتبرت النقد بالسلاح» قاعدة لكلّ نقد آخر. اشتق التفاؤل من معنى «الفدائي»، الذي يذهب إلى «خياره» حراً، ويعطيه استعداده للقتال شخصية جديدة، ومن اعتقاده أن «الفدائيين» يعبّرون عن «روح الشعب»، بعيداً عن «إدارة تقليدية» لم يثق بها.

ميّز غسان، منذ البداية، بين «الصحيح»، الذي تجسّده أخلاق تحررية لا تعرف المساومة، و«المفيد اليومي»، الذي يلتفت إلى «مصالح فئوية» ويضع مبادئ التحرر جانباً. وعن هذا «المفيد» المتعدد العناصر تطورت، لأسباب مختلفة، سياسة فلسطينية همّشت «المبادئ» واحتفت بغايات يطغى فيها الوهم على الواقع، والفئوي على الجماعي، والسلطوي على الوطني. ولم يكن ذلك الاحتفاء إلا انزياحاً عن القاعدة التي هجس بها غسان، المتمثلة بوحدة: الأخلاق الصارمة والمعرفة الموضوعية. لم يتوقع الأديب الراحل أن قاعدته ستسقط في مفارقة فاجعة، ذلك أن الكفاح المسلح، الذي انطلق ليمحوَ العار، دار حول ذاته طويلاً لينتهي إلى «عار جديد». فبعد عقود من الكفاح، ابتعدت فلسطين ولم تقترب، وأضيف إلى الاحتلال الأول احتلال جديد، وبقي اللاجئون في مخيماتهم، وظل «المجند الإسرائيلي» مسيطراً، واستأنف «الخمود» طريقه إلى أرواح كثيرة.

لم تُهزَم قاعدة غسان بسبب خلل داخلي، ولم يهزمها الإرهاب الصهيوني، إنما هزمت «فلسطينياً»، لأن العمل السياسي الفلسطيني فرّط بالعلاقة الضرورية بين الفعل الوطني والسياسة الأخلاقية، وبين الاقتراح السياسي والمعرفة الموضوعية بسياسة إسرائيل وأهدافها. والآن ماذا تبقى من غسان؟ بقيت أفكاره صحيحة، و«تداعت الأطراف الفلسطينية» القادرة على وعي هذه الأفكار وتطبيقها. ولهذا استمر «العار القديم» وأخذ أشكالاً جديدة، تجعل «حصاره» أمراً صعباً وبالغ الصعوبة □